الحوار الثقافي في ضوء العولمة

د. محمود السّيد ❁

طالما تردد لفظ «العولمة» في حياتنا الثقافية المعاصرة، وهو مصطلح مترجم عن اللغة الإنجليزية «Global» ووضع المترجمون العرب مصطلح «العولمة أو الكونية» مقابل «Globalization»، وطالما استخدم في الأدبيات الثقافية المعاصرة «القرية الكونية» مقابل «Global village».

ومصطلح «العولمة» الذي ذاع وانتشر انتشاراً واسعاً هو من نتاج الثورة المعلوماتية والشابكة (الإنترنت) وسيطرة اقتصاد السوق، وهو سلاح ذو حدين، فله جانب مضيء حين يربط بين الحضارات والشعوب متخطياً العامل الجغرافي، وجاعلاً من العالم قرية واحدة، ومحرراً الإنسان في مختلف أنحاء المعمورة من كثير من القيود بفضل ذيوع الإعلام

❁ أديب وناقد وأستاذ جامعي، ورئيس لجنة التمكين للغة العربية، ووزير سابق.

وانكشاف العالم كله أمام كل إنسان فيه، فبات يطّلع على ما يجري في العالم وهو في عقر داره، وباتت ثقافات الشعوب مكشوفة ومنتشرة ومتفاعلة بسبب العولمة الاقتصادية والثقافية والإعلامية بصورة خاصة.

أمَّا الجانب المظلم من العولمة فقد تمثل في هيمنة الأقوياء على الضعفاء، والأغنياء على الفقراء، وراح الاقتصاد العالمي الجديد يعمل على تحطيم الحواجز الاقتصادية والمالية بين الشعوب لا من أجل توليد عالم إنساني عادل في خدمة الإنسان، بل من أجل مصلحة الشركات العالمية المتعددة الجنسية والمسيطرة على العالم.. وباتت الدول تتعامل مع هذا الاقتصاد العالمي الجديد تعاملاً يربح فيه الأقوى، إلا أن الخاسر فيه لا محالة هو الدول النامية وخاصة الطبقات الفقيرة التي تزداد فقراً في العالم كله وسط هذا النظام الاقتصادي العالمي الذي يجعل اقتصاد العالم في يد ٢٠٪ من أبنائه على أكثر تقدير.

وإذا كان يقال إنَّ العالم غدا قرية صغيرة في ظلال العولمة، فيا ليت هذا العالم تحلَّى بأخلاق القرية، ففي القرية الناس متحابون ومتكاتفون ومتعاونون، ويعرف بعضهم بعضاً. أمَّا في عالمنا فثمَّة انحسار للقيم المعنوية حيث غاض فيه الوفاء، وفاض فيه الغدر والابتزاز، وهيمن فيه التطرف والإرهاب، ولم يعد فيه الإنسان آمناً على نفسه وعرضه وقيمه وأخلاقه ووطنه.

وغني عن البيان أن ثمة هيمنة لثقافة الأقوياء، وغزواً ثقافياً يتسلل من دون ضجة حتى إنَّ بعضهم شبهه بقنبلة كيميائية تنفجر خلسة دون أن يحس بها أحد، ولكن ترى الوجوه والأيدي بعد انفجارها بساعات قد أصيبت جميعاً.

وإذا كان «فيكتور هوغو» يقول: «قد نستطيع مقاومة غزو السلاح، ولكننا لا نستطيع مقاومة غزو الأفكار»، فهذا ما نلاحظه جليّاً في عالمنا المعاصر، وهاهو ذا الغزو الثقافي الأمريكي يتبدّى منتشراً على الصعيد العالمي في العديد من دول العالم وذلك في مجالين أساسيين أولهما وسائل الإعلام وثانيهما وسائل ثقافة الأطفال.

وهاهي ذي البرامج المبثوثة عبر التلفزة والفيديو شقت طريقها إلى البيوت العربية حاملة معها الإثارة والعنف وقيم الاستهلاك، ذلك أن الانتشار الثقافي في ظلال العولمة يشكل خطراً حقيقياً لا من جانب الصناعات الثقافية متمثلة في الأفلام السينمائية وأدوات الموسيقى من أجهزة الفيديو والتسجيل وأجهزة التصوير المتطورة، فضلاً عن الألعاب الخاصة بالأطفال والشباب ولاسيما الإلكترونية منها، وإنَّما يكون الخطر في الجانب المعنوي المتمثل في التأثير في القيم والاتجاهات وأنماط السلوك المبثوثة عبر

القنـوات الفضائية، كما أن إعلامنا العربي أصبـح نظاماً تابعاً، وغدا النظام الإعلامي العالمـي يسلب عقولنـا، ويشكل خطراً على ذاتيتنـا الثقافية وانتمائنا بسبب ما يفرضه من قيـم الاستهلاك، وتحويـل المجتمعات الناميـة، ومنهـا وطننا العربـي إلى مجرد أفواه وعقول مستهلكـة لا منتجة، ومنفعلة لا فاعلـة، وتنميط الحيـاة الثقافية بحيث تتحول الحضارات الأخـرى إلى حضارات هامشيـة، فضلاً عـن أنَّ فرض النموذج التقـاني (التكنولوجي) المتقدم يسلب الهوية الثقافية مقوماتها، ويوقف الذاتية الثقافية عن الإبداع، ويلغي التنـوع والتعدد الثقافي البشري، وهو أثمن ثروات الإنسانية.

ولمـا كان الوطـن العربـي لم يتمكن من اللحـاق بأسـرار هـذه الثـورات المعرفية والتقانية والاتصالية فقد زاد ذلك في قطع صلته بالعصر، كما زاد في قيام حالات عقد النقص والاغتراب والإحساس بالدونية أمام هذه الثـورات وأصحابها، ومن ثمَّ أدى ذلك إلى مزيـد من التبعية، حتـى لو لم يشأ ذلك أو لم يقبله، وهـذا كله يدفع إلى البحث عن الأمن الثقافي.

وطالما وجهنا أصابع الاتهام إلى الآخرين وحملّناهم مسؤولية ما نحن فيه، وأنَّ هؤلاء الآخرين يعملون علـى محو ذاتيتنا الثقافية وخلخلة انتمائنا، والسعـي إلى تشكيكنا في تراثنا وتاريخنا وشخصياتنا وأنماط تفكيرنا، ونادراً ما حملّنا أنفسنـا تلك المسؤولية، إذ إن تخلّفنـا الثقافي وتشرذمنـا من العوامل الأساسيـة التـي تسهلّ عمليـة الاستلاب والاختراق، وإذا كانت بعض الأسباب ترجع إلى غيرنا فإن الأجواء التي نحياها ملائمة للغـزو ومسهلّة لـه، لأنَّ الغـزو مظهر من مظاهر التخلف الثقـافي وهو نتيجة له، إذ ليـس ثمة خطر مع وجود النهضة الثقافية، ذلـك لأن ضعف البنيـة الثقافية هو الذي يسمـح بالغـزو مثلما ضعف بنيـة الجسم يسمـح بدخول الجراثيم إليـه، أمَّا إذا كان قويـاً ومتسمـاً بالمنعة فإن ثمـة صعوبة في اختراقه.

ولقـد أبانـت الخطة الشاملـة للثقافة العربيـة أن الغـزو الثقافي ظاهـرة ثلاثية الملامـح، فهي تاريخية وحتميـة وإنسانية، تاريخيـة لأنهـا وليـدة مرحلـة معينة من التطـور التقنـي الرأسمـالي في الحضارة الحديثـة، وحتميـة لأن أمم العـالم الثالث لم تسهـم في إبداع العلـم والتقانة المتطورة اللذين تقـوم عليهما ظاهـرة الغزو، وهي مجبرة مع ذلك على الأخـذ بإنجازات هذه التقنيات الغازية. والغزو الثقافي في النهاية ليـس مشكلة خاصة بالأمة العربية وحدها، ولكنها مشكلة إنسانية شاملة، وبعد من أبعاد القضايا الإنسانية الكبرى.

والسؤال الذي يمثـل أمامنا: ماذا نفعل تجاه هذا الغزو الثقافي؟ وهل ثمة بديل عن

هذا الغــزو؟ وهل ننغلق على أنفسنا تجاهه أم نفتح حنايانا له؟

الواقــع ليس الانغلاق بديــلاً عن الغزو لأنــه غير ممكــن في عالمنا المعاصــر، إذ إن الانغلاق يعني الجمود والموت لا محالة، وليس الاستسلام والذوبان في الآخر وتبني أنماطه الوافدة ببديل أيضاً لأنَّه سينتهي بدوره إلى النتيجــة نفسها من ضمــور الوجود الذاتي إضافــة إلى خسارتــه الإنسانيــة لأنَّه يلغي تعدد الــرؤى الثقافيــة بمحاولة فرض لغة واحدة، وأسلوب حيــاة واحد، وإحلال فكر دخيل على الفكر الأصيل.

والســؤال الآخــر: هــل يكــون البديل بالحوار؟

إنَّ الحــوار الحقيقــي بــين المجتمعات والشعوب على الصعيد العالمي ينبغي له أن يرتكز على مبادئ إنسانية وفي مقدمة هذه المبادئ تســاوي جميع الثقافات في الكرامة واغتناء بعضها من بعضها الآخر، وهذا مبدأ بدهي ثبّته التاريخ الأدبي والفني والمعماري في حياة البشرية، وهــو وسيلة لقراءة العالم وفهمــه، ولا يغيــبَنّ عن بالنا مــدى إسهام الثقافة العربية في الهندسة المعمارية والطب والرياضيــات على الصعيــد العالمي عندما جــابَ أصقاع الأرض بعيداً عن حدودها في الوقت الذي كانت فيه أوروبة متقوقعة على نفسهــا، كما لا يغيبَنّ عن البال أثر الفلسفة الهنديــة في الثقافة العالمية، وفلسفة الأنوار التــي انطلقت من فرنســا في القرن الثامن عشر لتنتشــر في سائر أنحاء أوروبة قبل أن تعبر المحيطات، ولا يمكننا أن ننسى الإسهام الأساســي للديانات السمحة في حياة البشر عندما سمت بهم هذه الديانات إلى التحليق في أجــواء المحبة والحــق والخير والجمال، ونأت بهم عن الضغينــة والأنانية والبغض والكراهية.

وتجدر الإشارة إلى أن الثقافات لا تتطور كلها وفــق الوتيرة نفسها، فثمــة ثقافة لأمة مــا تبلغ الذروة في فترة مــا، وإذا هي تنحدر وتتقوقع وتجمد في فترة أخرى كما حدث في تاريخ أمتنا العربية، إذ إنَّ ثقافتنا بلغت الأوج في العصــر العباسي، وما لبثــت أن أصيبت بالانحــدار والانحطــاط في عصــر الــدول والممالــك المتتابعة بعد ذلــك، وما من ثقافة إلا وتشهد فــترات إشعاع وتوسّع وتعقبها بعد ذلك فترات صمت وتراجع، وهذا ما أكده عالم الاجتماع العربي ابن خلدون في مقدمته.

وثمة مبدأ آخر في الحوار بين الثقافات يتكامــل مع المبدأ السابــق ولا يمكن فصله عن تساوي الثقافات في الكرامة الإنسانية، ألا وهو ضــرورة التعددية الثقافيــة، إذ إنَّ هــذه التعددية تحف بها المخاطر في حياتنا المعاصــرة، وفي ظــلال عولمة تــروم امحاء الذاتيــة الثقافيــة لكثير من شعــوب العالم ومجتمعاته، ويتجلى ذلــك في تهميش لغات الكثيريــن وفرض لغــات الأقويــاء مكانها،

وكم من مجتمعات منعزلة في عالمنا تتعرض ثقافتها للخطر!

ومن الملاحظ أن ثمة استعمالاً إيجابياً للعولمة، واستعمالاً سلبياً لها، ويكون الاستعمال الإيجابي في الأمور المشتركة والمتداولة والتي تؤثر في الضمائر متمثلة في الإعلام والمعرفة والتقدم وفهم الآخر وتقاسم القيم والثروات. أمَّا الاستعمال السلبي فيتمثل في قولبة كل شيء على صورة واحدة ونمط واحد والاختزال إلى أصغر قاسم مشترك، أو حتى سيادة قانون السوق وحده الذي يتغاضى عن تلك الثقافة الإنسانية القديمة التي يكمن جوهرها في جمع الناس حول مبادئ أخلاقية. وما مواجهة العولمة الطاحنة للثقافات إلا بطريق التعددية الثقافية، وأساسها الاقتناع بأن لدى كل شعب رسالة فريدة يعطيها للعالم عن طريق الإدلاء بدلوه في فلك الجمال والحقيقة إغناءً للحياة البشرية في هذا العالم.

وتجدر الإشارة إلى أن الحوار الفعّال يكون بين متكافئين، ولا يمكن أن يكون هنالك حوار بين قوي وضعيف، إذ إنَّ القوي لا محالة هو الذي يسيطر، كما أنَّ هؤلاء الأقوياء لا يرومون الحوار مع الضعفاء حتى لو أراد الضعفاء الحوار وسعوا إليه.

وإذا كانت البشرية في تاريخها قد عرفت حوار الثقافات وانفتاح بعضها على بعضها الآخر فإن مستقبل البشرية وفي ظلال العولمة يرمي إلى تهميش الثقافات الضعيفة وهيمنة ثقافة الأقوياء على الآخرين.

ومع أنَّ أسلوب الحوار هو الأسلوب الذي ينبغي له أن يعتمد في عالمنا المعاصر بدلاً من أسلوب التصادم والهيمنة والاستلاب فإنَّ التفاعل بين الثقافات ينبغي له أن يكون مبنياً على الأخذ والعطاء وعلى تقديم شيء من الذاتية الثقافية إذ لا يصح التعامل مع ثقافة الآخر تعامل الإنسان الفارغ الخالي من أي شيء والفاقد الانتماء والمنبهر أمام الثقافة المهيمنة، يقبل عليها بقلبه وعقله ووجدانه، فتملك عليه شخصيته كاملة، وتسلبه هويته وطابعه وذاتيته الثقافية.

ورحم الله شاعرنا العربي إذ يقول:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى
فصادف قلباً خالياً فتمكنا

ومعرفة الهوى هنا هي معرفة الذات، ومعرفة من نحن، ومعرفة سر التقدم التقاني والمعلوماتي والبرمجيات المتعلقة به مصوغة بطابعنا العربي وذاتيتنا الثقافية، وعندها فقط يكون لنا موطئ قدم في هذا العصر المتطور والمتوثب والذي لا يعترف إلا بالأقوياء بعقولهم ومعرفتهم، لأنَّ المعرفة قوة.